

فلم يحدث شيء من ذلك، إذ تعهد النثر موهوبون من الكتّاب توفروا على تمثّل خصائصه الجمالية تمثلاً بارعاً، وبشيد بهم الجاحظ في كتابه البيان والتبيين قائلاً: «إنهم لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة وعلى المخارج السهلة والديباجة الكريمة وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد وعلى كل كلام له ماء ورونق وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمّرتها وأصلحتها من الفساد القديم وفتحت للسان باب البلاغة ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ وأشارت إلى حسان المعاني». ويُعدّ الجاحظ نفسه أبرع كاتب في عصره إن لم يكن في العصر العباسي جميعه إذ تمثل تمثلاً نادراً خصائص العربية البلاغية وأسرارها البيانية، فإذا هو يسوّى لنفسه أسلوباً ناصعاً شفافاً يزاوج فيه بين الألفاظ المنتخبة مزاجية اشتقتها من البيان القرآني، تضيء على أسلوبه بيانا خلاّباً بما تحمل من معادلات موسيقية في النثر تستريح إليها الآذان والألسنة وتطمئن لها القلوب والأفئدة.

والجاحظ من خير الأمثلة التي تصوّر وحدة النثر العربي، إذ نال شهرة عريضة في عصره، بحيث لم يعد أديب بغداد والعراق وحدهما، بل أصبح أيضاً أديب إيران والشام ومصر والمغرب والأندلس، وقد تطاير شرر نثره - في حياته - إلى كل هذه الأقطار، إذ أحسّ العرب في كل مكان أن نثره يحمل الخصائص الجمالية للعربية في صورة أو صور بلاغية بديعة، كانت - ولا تزال - مهوى قلوبهم. ويصوّر ذلك من بعض الوجوه ما حكاه ياقوت في معجم الأديباء من أن أندلسياً قرأ في موطنه كتابيه: «البيان والتبيين» و «التربيع والتدوير» فرحل إلى البصرة يريد لقاءه في بلده، وكان مما قاله للناس في بعض حديثه: إن طالب العلم بالمشرق من ديارنا يشرف عند أمرائنا بلقاء الجاحظ. وواضح من هذا الحديث أن الكتّابين المذكورين للجاحظ كانا قد حُملا إلى الأندلس في حياته وأخذ الأديباء والأمراء يقرءونها ويطلبون المزيد من كتاباته البليغة. ومما يصور مدى انتشار روائع آثاره في حياته بالعالم العربي ما رواه ياقوت أيضاً من أن شخصاً قال لأبي هفان: لم لا تهجو الجاحظ وقد ندّد بك؟ فأجابه بقوله: «أمثلي يُخدع عن عقله، والله لو وضع رسالة في أرنبه أنفى لما أمست إلا بالصين شهرة،